

المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا Mikel de Epalza

(1938 – 2008) ⁽¹⁾

وعلاقته بتونس

د. عبد الحكيم سلامة القفصي

مدير بحوث بالمعهد الوطني للتراث

مقدمة

هذه الدراسة هي تكريم لعالم كبير أحب تونس والتونسيين على مدى أكثر من نصف قرن وهي أيضا اعتراف بالجميل لما قدمه لتاريخ تونس وحضارتها. وهي أيضا شرف لرجل امتاز بالعفوية والبساطة وحب الغير ومساعدة الباحثين الشبان. في الحقيقة لم أتمكن من الاطلاع على كثير من أطوار حياته رغم الرسائل المتبادلة بيننا ابتداء من سنة 1974 والعلاقات المتكررة التي كانت تجمعنا عند انعقاد المؤتمرات والملتقيات العلمية. عرفت إبلزا Epalza وعلمه ونزاهته ودكائه وحب اطلاعه ومحبه اللامتناهية للعمل المتقن خاصة عندما كنت أعمل معه في إعداد كتاب حول بقايا اللغة الإسبانية بالبلاد التونسية⁽²⁾ الذي يحتوي على 766 صفحة والذي تتطلب إنجازه أكثر من عشر سنوات وحوار عديد المرات.

⁽¹⁾ انظر مقال الصادر بجريدة La presse de Tunisie يوم 2008/12/14 ص. xv . وكذلك مقال حنان زيس بمجلة Réalités الصادرة بين 12 و 16 فيفري 2009 التي تحدثت فيه على المحاضرة التي ألقيتها بمقر مكتبة مدينة تونس (دار ابن عاشور) يوم 6 فيفري 2009 بعنوان العلاقات التونسية الإسبانية من خلال أعمال المستشرق ميكال دي بلزا

⁽²⁾ El español hablado en Túnez por los Morsicos o Andalousies y sus descendientes (siglos XVil-XVIII) .

حياته

ولد بمدينة Pau الواقعة جوب غرب فرنسا سنة 1938 بعد أن فر والده من إسبانيا التي كانت تعيش حرباً أهلية قاسية. وهو ينتمي إلى عائلة باسكية من مدينة بلبو Bilbao وكان يحلم منذ الطفولة بأن يكون دبلوماسياً غير أنه تخلى عن ذلك شيئاً فشيئاً.

تحصل على الإجازة والدكتوراه من جامعة برشلونة قسم فقه اللغة السامية والعربية والعقيدة الكاثوليكية، ودرس بجامعة برشلونة و Lyon (1972-1974) وتونس والجزائر ووهران مدريد أوتوغما، ومدير كميّاس Madrid Autônoma و Madrid Comillas والتحق أخيراً بجامعة ألفت سنة 1979 حيث أصبح أستاذاً بارزا في الدراسات العربية الإسلامية.

علاقاته

كانت له علاقات متينة مع العديد من الباحثين في مختلف الجهات. فقد كانت له روابط قوية مع الجالية المغربية المستقرة بألفت والجالية الإسبانية المستقرة بوهران واللاجئين الجمهوريين الإسبان بتونس. وقد مكّني من الاتصال بهم وربط صداقات معهم عندما كانت بصدد إعداد أطروحة المرحلة الثالثة حول امتدادات الحرب الأهلية الإسبانية بتونس من سنة 1936 إلى سنة 1939⁽¹⁾.

وكان له بجانب ذلك عطف خاص على القضية الفلسطينية والفلسطينيين من ذلك أنه كان يلبس اللباس التقليدي الفلسطيني وشارك عديد المرات في تظاهرات مساندة لهذه القضية. وقد رفض الحضور في عديد المؤتمرات سواء بإسبانيا أو خارجها والتي كانت تنظمها مؤسسات صهيونية.

(¹) Les prolongements de la guerre civile espagnole en Tunisie (1936-1939)

تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مارس 1979، 392 . ص.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

ونظرا إلى العلاقات المتينة التي اكتسبها من خلال زيارته لعدد البلدان العربية (مصر، سوريا، لبنان، تونس، المغرب، الجزائر. . .) فقد تمكن من الاطلاع على عديد البحوث واتجاهات المدرسة التاريخية العربية. وكان متحمسا عند الحديث عن المشاريع المستقبلية في الدراسات العربية الإسلامية أو الموريسكية أو العلاقات بين مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط. فقبل وفاته كان بصدد إنجاز دراسة حول العلاقات التونسية الإسبانية من خلال نشاط السفير الإسباني السابق بتونس ألفونسو دي لاسرنا "Alfonso de la Serna"⁽¹⁾ وعند إقامته بالجزائر تمكن من ربط صداقة متينة مع المرحوم المناضل توفيق المدني المتوفى سنة 1983. وقد خصص بحثا شيقا حول هذه الشخصية الوطنية الجزائرية المتميزة في بحث نجده في كتابه : "حرب 300 سنة بين الجزائر وإسبانيا"⁽²⁾

اهتماماته وأفكاره

اهتم EPALZA بدراسة الأقليات (المستعربين، الموريسكيين، المدجنين. . .) بجانب استعراضه لعدد المشاكل المتعلقة باللفات وتداخلها (العربية، اللاتينية، القشتالية، الكتالية. . .) وحرص على إلقاء الضوء على التاريخ العربي الإسلامي بالأندلس والتعريف بالحضارة الأندلسية وعلاقاتها المتشعبة بالعالم المسيحي في نطاق البحر الأبيض المتوسط. كما تعرض إلى استشفاف عديد الأسرار حول المدن الأندلسية ومواقعها وعلاقتها بالريف مقتنعا بأن الحضارة العربية الإسلامية في

(¹) El embajador Alfonso de La Serna, escritor y promotor de estudios sobre los moriscos en el Magreb.

(²) Tres histouadores y política de Argelia presentan la política de Carlos V con la naciente Argelia moderna: Az-Zahhar (m.1872) , Zavala (1886) y Al-Madani (m.1983) en M.Jesus Rubiera Mata (dir) Carlos V, los moriscos y el Islam, Madrid, ed. Sociedad Estatal para la conmemoracion de los centenarios de Felipe II, y de Carlos V, 2001,233-267

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية -

الأندلس بنيت بالأساس على المدينة باعتبار أنها تخضع إلى تصميم هندسي متطور مبرز دور الجامع في التخطيط العمراني وملاءمته للدين الإسلامي. فضلا عن ذلك فقد أمدنا Epalza بمعلومات غزيرة حول تحويل الجوامع إلى كنائس والجدل العقائدي والرد على النصارى والفتاوى (الونشريسي، المغراوي. . .) والتصوف من خلال مقال حول الحلاج في نظر ماسينيون وآسين بلاسيوس Massignon و Asín Palacios⁽¹⁾. كما اهتم بالرحلات إلى البقاع المقدسة من قبل بعض المدجنين أو الموريسكين أو المغامرين كما حرص على الاهتمام ببعض المواضيع المعقدة كالأرطقة⁽²⁾ والعلاقات الإسلامية المسيحية⁽³⁾.

وبجانب ذلك تفرغ الفقيه إلى دراسة عيسى عليه السلام في نظر اليهود والمسلمين⁽⁴⁾ في كتاب شيق اعتمد فيه على التحقيق العلمي المعمق والمقابلة والتمحيص والتحليل. كما انصرف إلى ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الكطلانية انطلاقا من المصحف الشريف⁽⁵⁾ أساسا وتجنب الاعتماد على ترجمات أخرى كالترجمة اللاتينية أو الفرنسية أو الإنجليزية كما كان متعارفا. وقد أرفقت هذه الترجمة بدراسة موسعة ومستفيضة حول القرآن الكريم تحصل إثر نشرها على جائزة مدينة برشلونة سنة 2002.

كان إبلزا من المناهضين الأشداء للمدرسة الإفريقية الإسبانية La escuela Africanista التي كانت تعمل على تبرير الاستعمار الإسباني بالمغرب والساقية الحمراء والمناطق التي كانت خاضعة للنفوذ الاستعماري الإسباني في مختلف بقاع العالم. كما كان يعتبر أن تاريخ العرب بالأندلس هو جزء لا

(¹) Massignon et Asin Palacios : une longue amitié et deux approches différentes de l'Islam, Cahiers de l'Heme (Paris) 13 (1970) 157-169.

(²) La ràpita islàmica. , Sant Carlos de la Ràpita, Madrid Instituto de Cooperaci3n con el mundo arabe (1993) 5-59; 61 -107.

(³) انظر مجلة Encuentro isl3mo- cristiano

(⁴) J3sus otage. Juifs, chr3tiens et musulmans en Espagne (VII-XVIIe s) Paris, 1987, 238.p.

(⁵) L'Acor3, Barcelona, Proa, 2001,2002, 1277 p.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

يتجزأ من التاريخ العام الإسباني وأن التراث الذي خلفته الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس هو تراث مشترك بين العرب وإسبانيا وهو مساهمة متميزة في التاريخ الإنساني. وفضلا عن ذلك فقد كان إبلزا مقتنعا بأن ثقافة بلدان ضفتي البحر الأبيض المتوسط متقاربة ومتفاعلة رغم الاختلافات السياسية والدينية واللغوية، لذلك كان من المناهضين للسياسة الإسبانية ولأعمال محاكم التفتيش ضد المسلمين الذين بقوا بإسبانيا بعد سقوط غرناطة والذين لقبوا بالموريسكيين.

مهامه

اشتهر إبلزا بتنظيم المؤتمرات والإشراف على نشر أعمالها وإعداد مقدمات مفصلة ومدققة تناول فيها إشكاليات المواضيع المطروحة وآفاق البحث. وقد عمل دائما على استمرار تنظيمها وإثرائها وتنويعها وذلك بإنشاء هيئات علمية نشيطة تشرف على حسن سيرها وتنظيمها.

كما قام إبلزا بتنشيط عديد اللجان العلمية المتخصصة في تاريخ الموريسكيين وخاصة منها اللجنة العالمية الموريسكية التي يديرها الدكتور عبد الجليل التميمي. وبجانب ذلك قام إبلزا ببعث مجلة شرق الأندلس بجامعة ألقنت Aljamia بمدينة Oviedo وتطوير مجلة شرق الأندلس بعد توأمة بين ألقنت ومعهد دراسة المدجنين بمدينة ترول (Instituto de Estudios Turelenses)

أعماله

بجانب أعماله العلمية المتخصصة⁽¹⁾ قام إبلزا بتكوين فرق بحث ونشر كتب جماعية حول مواضيع مختلفة متعلقة بالحمامات⁽²⁾ أو العمران⁽¹⁾ أو الببلغرافيا⁽²⁾ كما قام بإعداد بحوث بالاشتراك

⁽¹⁾ قام Epalza بنشر أكثر من عشر كتب وأكثر من 290 مقال دون احتساب المقالات الصحفية والمقالات الصادرة بالمجلات التجارية.

⁽²⁾ Los banos arabes en el pais valenciano, Valencia 1989

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

مع العديد من الباحثين الأسبان والأجانب. كما امتاز إبلزا بنشر مئات المقالات للتعريف بالكتب المنشورة من قبل أصدقائه أو غيرهم. ويتجلى عطفه على زملائه وأصدقائه من الباحثين من خلال خلال مشاركاته المتعددة في أعمال التكريم التي ينظمها أو التي يساهم فيها اعترافا بالجميل لعلمهم وتقديرًا لمساهماتهم في إثراء المعرفة وتوسيع آفاقها. وهو لم يحجم خلالها عن معالجة قضايا جوهرية خطيرة تمس اهتماماته مباشرة أو اهتمامات المكرمين سالكا فيها نهجا يصطبغ بالثقافة الواسعة والفكر.

كما اشتهر إبلزا بتحقيقاته اللغوية وأبحاثه في العلاقات المتشعبة بين مختلف اللغات المتداولة ببلدان ضفتي البحر الأبيض المتوسط ومنها خاصة La Lengua Franca وبرهن كذلك عن معارف واسعة وإطلاع نادر على عديد المواضيع المتعلقة بالأسماء (الأماكن والأشخاص) ⁽³⁾ وأثبت كذلك مقدرة فائقة وإطلاع واسع عن عديد الديانات والثقافات عندما قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الكتالانية انطلاقا من المصحف الشريف وعند تحقيقه لمخطوط عبد اله الترجمان تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ⁽⁴⁾. وبجانب ذلك أصدر إبلزا عدة كتب ومقالات باللغات الانجليزية والألمانية والعربية والفرنسية والإيطالية. وهو يتقن جيدا اللغات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والعربية كما يتقن اللاتينية وله معرفة بالعربية والإغريقية.

⁽¹⁾) La ciudad islàmica, Zaragoza, 1991, 474 p

⁽²⁾) Moros y moriscos en el.Levante peninsular, Alicante, 1983, 291 p.

⁽³⁾ Note Sobre Benimagrelle ... Anales de la universidad de Alicante. (Alicante) 9 (1992-1993) 53-67.

⁽⁴⁾ La Tuhfa, Roma, Accademia Nazionale dei Lincei, 1971, 522 p.

علاقة إبلزا بتونس والتونسيين

من المستحيل حصر هذه العلاقة بصورة مدققة وكاملة. وسوف أكتفي بما تمكنت من جمعه اعتمادا على بعض أصدقائه وخاصة على إنتاجه الغزير (أكثر من 300 مقال وكتاب).

ارتبطت العلاقة المتينة بين إبلزا وتونس منذ سنة 1960 تقريبا عندما اختير للقيام بتربص لغوي بمعهد بورقيبة للغات الحية. وقام بداية من سنة 1964 بالشروع في إعداد أطروحته حول مخطوط تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب لعبد الله الترجمان. وقد تم انتدابه سنة 1973 لتدريس اللغة الإسبانية بكلية الآداب وفي سنة 1974 عين مستشارا علميا بمركز الدراسات الإسبانية والأندلسية التي كان يديره المرحوم مصطفى سليمان زبيس. وكان وراء إنشاء هذا المركز الذي كان تابعا للمعهد القومي للآثار والفنون حيث عرفته لأول مرة.

وتظهر هذه العلاقة المتينة من خلال المحاور التالية:

1) نشر الكتب المتعلقة بتاريخ تونس وحضارتها، ومن بينها:

أ) Etudes sur les moriscos-Andalous en Tunisie سنة 1974.

ب) Produccion tunecina y argelina sobre historia de Espnâ desde la independencia (1956 y 1962) بالاشتراك مع محي الدين بن علي وعبد الحكيم القفصي.

ج) Bibliographie tunisienne concernant l'histoire de l'Espagne بالاشتراك مع محي الدين بن علي وعبد الحكيم القفصي. (1973 - 1956) سنة 1975.

د) Literatura tunecina conternporânears سنة 1978.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

Recherches sur les Moriscos-Andalous au Maghreb (bilan et perspectives) سنة 1979 بالاشتراك محي الدين البوغانمي وعبد الحكيم القفصي ونور الدين الحلاوي.

(2) مشاركته في المجلات التونسية:

كان إبلزا من بين أعضاء هيئة تحرير مجلة دراسات أندلسية التي يديرها صد يقنا المناضل الدكتور جمعة شيخة وكان أيضا من المراسلين المتميزين للمجلة التاريخية المغاربية التي شرف عليها بكل اقتدار وتфан وتضحية أستاذنا وصديقنا عبد الجليل التميمي. وتوصلنا من خلال بعض الكشوفات التي قمنا بها أن الفقييد نشر في عديد المجلات الصادرة بالبلاد التونسية كالمجلة التاريخية المغاربية، والمجلة العربية للدراسات العثمانية، وحوليات الجامعة التونسية، والكراسات التونسية، ومجلة معهد الآداب العربية (IBLA).

(3) المؤتمرات التونسية الإسبانية:

كان إبلزا من بين الباحثين الذين بعثوا هذه المؤتمرات المنعقدة بالتناوب بين تونس وإسبانيا (الحمامات سنة 1969، مدريد 1972، تونس 1974، ميورقة 1979، تونس 1989...) وقد مكنت هذه المؤتمرات من التعرف على اهتمامات وإسهامات المدرسة التونسية والمدرسة الإسبانية في التاريخ المشترك.

(4) استدعاء الباحثين التونسيين إلى المؤتمرات المنعقدة بإسبانيا:

قام إبلزا باستدعاء عديد الباحثين التونسيين إلى المؤتمرات المنعقدة بإسبانيا حول المواضيع التالية: مؤتمر بنيسا Benissa حول التحكم في الماء (أحمد وفاطمة القصاب وعبد الحكيم القفصي).

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

مؤتمر سرقسطة حول المدينة الإسلامية (عبد الحكيم القفصي) مع الملاحظة أن غلاف أعمال المؤتمر يحتوي على صورة جميلة لمدينة سوسة العتيقة.

مؤتمر San Carlos de la Rápita حول الرباطات (المرحوم فرحات الدشراوي، المرحوم مصطفى سليمان زبيس، وعبد الجليل التميمي، وجمعة شيخة، ورضا مامي، وعبد الحكيم القفصي) .

مؤتمر حول ابن الأبار بـ ONDA (المرحوم رشاد الإمام، والمرحوم مصطفى سليمان زبيس، وعبد الحكيم القفصي وجمعة شيخة) .

5) حضور المؤتمرات المنعقدة بتونس :

نظرا إلى قيمته العلمية المتميزة وإشعاعه في عديد البحوث استدعي إبلزا إلى عديد المؤتمرات التي انعقدت بتونس قبل مرضه بالقلب⁽¹⁾ .

6) مشاركته في المعارض التونسية المقامة بإسبانيا:

استدعي إبلزا للمشاركة في معرض "تونس أرض الثقافات"، الذي نظم ببرشلونة وبلنسية سنة 1998.

7) التعريف بالكتب المنشورة من قبل التونسيين :

قام إبلزا بالتعريف بعدد الكتب الصادرة بالبلاد التونسية من قبل التونسيين (محمود طرشونة، الطاهر فيقة، عبد الوهاب بوحدية، أحمد الحمروني. . .) وذلك بالمجلات التالية شرق الأندلس، والمنارة، والأخامية : Almenara, Aljamia, Sharq Al-Andalus.

⁽¹⁾ تعرض الفقيد إلى جلطة قلبية سنة 2004 عندما كان يقوم بمحاضرة حول الأضواء والأصضاء بجامع قرطبة.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

وبجانب أعماله العلمية الدقيقة اعتمد إبلزا على المحاضرات لإبراز التاريخ المشترك بين تونس وإسبانيا. فقد قام بإلقاء عديد المحاضرات بالمدن التونسية (تونس، بنزرت، قرقنة. ..). كما كتب العديد من المقالات بالصحف التونسية للتعريف ببعض النقاط المتعلقة بالحضارة العربية بالأندلس وعلاقتها بالبلاد التونسية. فضلا عن ذلك فقد حرص على ترجمة العديد من تدخلات التونسيين في المؤتمرات المنعقدة بإسبانيا إلى اللغة الإسبانية حتى يتسنى فهمها واستيعابها.

8) علاقته بالباحثين التونسيين:

تمكن إبلزا بفضل ذكائه النادر وذاكرته العجيبة من نسج عديد الصداقات مع عديد الباحثين في العالم وفي تونس كالشيخ المرحوم محمد الشاذلي النيفر وعبد الحفيظ منصور اللذين ساعدها كثيرا عند إنجاز أطروحته، والرحوم الطاهر قيق والمرحوم فرحات الدشراوي والرحوم رشاد الإمام والمرحوم مصطفى سليمان زبيس ومحمد الطالبي ومحمد اليعلاوي ومحمود طرشونة وعبد الوهاب بوحدية وعز الدين قلوز وجمعة شيخة وغيرهم كثير...

وقد قام إبرازا لهذه العلاقة من تقديم وتعريف إنتاجهم الفكري المتميز. وبجانب ذلك فقد كانت له علاقات طيبة وممتينة مع مجموعة كبيرة من الآباء البيض العاملين بمعهد الآداب العربية خاصة خلال السنوات التي قضاها بتونس بين سنتي 1963 و 1975 حسب ما أفادني به مشكورا الأب Jean Fontaine.

9) علاقته بالمرحوم حسن حسني عبد الوهاب:

كان إبلزا يكن للمرحوم ح.ح. عبد الوهاب عطفًا متزايدا واحتراما كبيرا منوها به في كل مناسبة وكان معجبا إعجابا شديدا بالمقال الذي شارك به حسن حسني عبد الوهاب في مؤتمر المستشرقين

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

بالجزائر سنة⁽¹⁾ 1908 والذي سلط فيه الضوء لأول مرة على دور الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى بلادنا لذلك فقد قام إبلزا بإبراز ذلك في مقال خصصه للسيرة الذاتية لحسن حسني عبد الوهاب وأعماله.

10 علاقته بالمرحوم عثمان الكعاك:

كان إبلزا لطيف المعشر خفيف الروح ميالا إلى الحديث الفكه صادق اللهجة فاستطاع بفضل هذه الخصال الحميدة من ربط علاقات متينة مع عديد العلماء. وكان إلى جانب ذلك وفيما لأصدقائه. فقد قام بإرسال تدخله- نظرا لعدم استطاعته السفر بعد النوبة القلبية التي تعرض لها- إلى المشرفين على فعاليات "عثمان الكعاك في الذاكرة" التي نظمتها الجمعية التونسية للتاريخ والآثار واللجنة الثقافية المحلية بقممرت في 28 ماي 2005 بسط فيه ذكرياته مع المرحوم عثمان الكعاك وأعماله.

11 علاقته بالمرحوم مصطفى سليمان زبيس:

كانت لـ إبلزا مراسلات عديدة مع المرحوم مصطفى سليمان زبيس دامت حتى بعد إحالته على التقاعد. وقد كان يعتبره من آباءه الروحيين ومن الرموز الهامة للأندلسيين باعتباره ينحدر من عائلة موريسكية اسمها Llopis . وقام باستدعائه عديد المرات إلى إسبانيا لحضور المؤتمرات أو لتكريمه. فقد خصص له مقالا في الكتاب الذي أصدره المعهد بعنوان : دراسات في الآثار والنقائش تكريما لسليمان مصطفى زبيس كما قام إبلزا بترجمة كثير من مقالات المرحوم إلى الإسبانية وخصص له بالاشتراك مع القفصي مقالا انطلاقا من استجواب صدر بمجلة شرق الأندلس الإسبانية⁽²⁾ ضمن أعمال المؤتمر العالمي حول المدجنين والموريسكيين المنعقد بمدينة Teruel الإسبانية الجميلة (تراث عالمي) تم فيه

(¹) Coup d'œil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie, Revue Tunisienne (Tunis) XXIV (1917) 305-316, 371-379.

(²) Entrevista al Sr.Zbiss y su familia (2004) 437-447

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

عرض أهم مراحل حياته المهنية وأهم إنتاجه في التاريخ والآثار والتعريف بالتراث الوطني التونسي. واثراً وفاة المرحوم زبيس خصص إبلزا مقالين صدرتا بمجلتين في إسبانيا نتلمس من خلالهما هذا العطف وهذا الإخلاص وهذه الصداقة المبنية على النزاهة والإخلاص.⁽¹⁾

العلاقات الإسبانية التونسية من خلال أطروحته حول عبد الله الترجمان:

احتوت هذه الأطروحة على عديد الأحداث التي مرت بها البلاد التونسية خلال حكم أبي فارس عبد العزيز الحفصي (1394/707 - 1434/838) وأبي عمرو عثمان (1424/828 - 1494/900): علاقات مع ملك أرغون وتحديد الاتفاقيات التجارية وإبرام المعاهدات. اعتنق أنسلم ترميدا Anselm Turmeda الميورقي الإسلام حوالي سنة 1400/803 وأصبح اسمه عبد الله الترجمان وألف كتابه: "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب" سنة 823/1420. وكان يرمي من خلاله إلى الدفاع عن الإسلام وإلى تثبيت المسلمين في عقيدتهم إزاء حملات التشكيك والتضليل الصادرة عن النصارى. وحظي هذا الكتاب بتقدير كبير في الأوساط الإسلامية وباعتناء متزايد في الأوساط المسيحية لتعرضه إلى نقاط الخلاف بين الإسلام والمسيحية كالتثليث وتحريف التوراة والإنجيل والطعن في مبادئ الإسلام ونبيه.

وقد قام إبلزا عند إعداد أطروحته بين سنتي 1964 و1966 بالترحال بين مصر وسوريا ولبنان والمغرب وتونس وليبيا. .. وتمكن من الاطلاع عن كثب على الحياة اليومية في هذه الأمصار بعيداً على آراء بعض المستشرقين عاقبة والإسبان خاصة.

(1) انظر: 46-51 (2004) 16 Aljamia 357-360 (1999-2002) 16-17 Sharq Al- Andalus

العلاقات التونسية الإسبانية من خلال الموريسكيين الأندلسيين

كانت الإحاطة بدراسة الموريسكيين الأندلسيين بالبلاد التونسية من بين الاهتمامات المتميزة لـ إبلزا فقد قام سنة 1973 بنشر كتاب بعنوان "بحوث حول الموريسكيين الأندلسيين في تونس"، يضم أكثر من ثلاثين مقالا بالفرنسية نشرت في مجلات أجنبية باللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية لعدة باحثين تونسيين (حسن حسني عبد الوهاب وعبد المجيد التركي ومحمد الحبيب الهيلة وسليمان مصطفى زيس وعبد العزيز الدولتلي ومحمد العنابي وفتحية السخيري وأحمد القصاب وحافظ ستهم ومحمد العواني والشاذلي القليبي) بجانب العديد من الباحثين الأجانب، وتناول هؤلاء بالبحث هجرة الموريسكيين ومساهماتهم اللغوية والدينية والعمرانية والمعمارية والأدبية والجغرافية فضلا عن المواضيع المتعلقة بصناعة الشاشية واللباس والمأكّل. وقد قام إبلزا بتقديم كل دراسة ووضعها في إطارها التاريخي مبينا أبعادها وموضحا آفاق العمل المستقبلي والمواضيع التي مازالت تحتاج إلى الدراسة كالعلاقات بين الجالية الأندلسية واسطنبول والصوامع المثلثة والخزف والفلاحة وتجارة العبيد وإدخال المنتجات الأمريكية والعوامل التي كانت وراء اللحمية "الوطنية"، بين المهاجرين والشعور بالانتماء إلى الأندلس العربية الإسلامية والانتماء إلى حضارة متفوقة. كما ركز اهتمامه على حث الشباب التونسيين لدراسة آثار هذه الجالية من خلال الوثائق المحفوظة بإيطاليا وتركيا وفرنسا، كما نادى بجمع التراث اللغوي والموسيقي والعادات والتقاليد في مختلف القرى الأندلسية. وقد جمع إبلزا في مقال⁽¹⁾ نشر بهذا الكتاب عدة معلومات مستخرجة من أرشيف القنصلية الفرنسية بتونس تتبع من خلاله دور أعلام أندلسية كمصطفى كردناش ولويس زباطا Luis Zapata وعلي صوردو واحتكار الأندلسيين لتجارة التبغ والمواد المستعملة

(¹) Moriscos y Andalusîes en Tûnez durante el siglo XVII. Al-Andalus (Madrid-Granada) XXXIV(1969) 247-327.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية -

في صناعة الشاشية كالصوف والقرمز. كما اهتم بالحرف الممارسة من قبل الأندلسيين كالنجارة وصناعة السفن والترجمة والطب والصيدلة والتدريس. وفضلا عن ذلك فقد اشتمل المقال بعنوان "المورسكيون والأندلسيون بالبلاد التونسية في القرن XVII" على عدة معلومات قيمة حول الاندماج وسط المجتمع التونسي والأدب الإسباني المتداول في أوساط هذه الجالية كما أبرز الباحث بعض الألقاب كالحاج والشريف والنقيب والمعلم...

وبجانب ذلك فقد اهتم الباحث في مقال بعنوان "دراسات حول المورسكيين المهاجرين إلى تونس من القرن السابع عشر إلى يومنا" (1) بالأدب الأعجمي واستعمال العبيد في الاستغلال الفلاحي ونشر الزراعات المستجلبة من أمريكا كالطماطم والبطاطا... واحتكار صناعة الشاشية وسياسة عثمان داي تجاه الجالية الأندلسية بالاعتماد عليها وتجنب إدماجها في المجتمع التونسي وإبقائها مستقلة وذلك بإحداث مناطق سكنية وإدارية شبه مستقلة مخصصة لها. كما اعتنى الباحث بسياسة الشيخ أبي الغيث القشاش التي كانت تهدف إلى إدماج هذه المجموعة في صلب المجتمع التونسي وجعلها متضامنة مع بقية العناصر السكانية الأخرى (2).

(1) Trabajos actuales sobre la comunidad de moriscos refugiados en Tûnez desde el siglo XVII a nuestros dias. Actas del coloquio internacônal sobre literatura aljamiada y morisca, Oviedo-Madrid, Gredos, 1978, 427-444.

(2) Sidi Bulgayz, protector de los moriscos exiliados en Tûnez, Sharq Al-Andalus (Teruel-Alicante) 16-17 (1999-2002) 145-176.

الموريسكيون

ويعد إبلزا من الباحثين الأوائل الذين افترضوا أن إنجيل برنبي Bernabé⁽¹⁾ هو من وضع وإحداث الموريسكيين. وقد بين أنه كان متداولاً في أوساط الجالية الموريسكية الأندلسية المستقرة بالبلاد التونسية حوالي سنة 1044/1634. من المعلوم أن الإنجيل هو إعلان لرسالة المسيح عليه السلام بلسان وقلم كل من متى Mathieu و مرقس Marc ولوقا Luc ويوحنا Jean. وبذلك يكون إنجيل برنابي Bernabé من البدع في نظر المسيحيين نظراً إلى أنه يبين أن عيسى عليه السلام هو رسول فقط كغيره من الرسل. وتوازيها مع ذلك قام إبلزا بنشر كتاب بعنوان "الموريسكيون قبل وبعد الطرد"⁽²⁾ يعد من المراجع الأساسية في هذا الموضوع. وقد طبع هذا الكتاب في عدة نشرات منقحة. وقد خصص منه جزءاً محترماً حول الموريسكيين الأندلسيين بالبلاد التونسية.

إبراهيم التيلي

قام إبلزا بإعداد تقديم مطول لكتاب لوي برنبي بونس Luis Bernabé Pons⁽³⁾ الذي خصصه لدراسة هذه الشخصية الأندلسية اللامعة ومن خلالها الأدب باللغة الإسبانية الذي كان متداولاً بالبلاد التونسية في ذلك الوقت. ومن المعروف أن التيلي وضع شعراً كتاباً بعنوان الأنشودة أو Cantico بتستور سنة 1628/1037 حسب إمضاء التيلي نفسه. وهذا الكتاب المتميز عبارة عن مجموعة شعرية تحتوي على 4608 بيتاً ومقدمة وخاتمة و فصلاً هاماً جداً فيه إشارة واضحة إلى وجود

(¹) Un posible autor español del « Evangelio de Bernabé, Al-Andalus (Madrid) 28 (1963) 145-182.

(²) Los moriscos antes y después de la expulsión, Madrid, MAPFRE, 1992, 312 p.

(³) El cântico islâmico del morisco hispanotunecino Taybili, Zaragoza, Institución Fernando el católico, 1988, 274 p.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية -

طبعة أولى لقصة دون كيخوت للكاتب الإسباني Cervantes ويرمي التيلي من وراء وضع هذا الكتاب إلى الدفاع عن الإسلام وتثبيت الموريسكيين المهجرين في عقيدتهم تجاه حملات التشكيك الصادرة عن النصارى. ويعد كتاب الطيلي من المصادر الهامة لمعرفة ملابسات طرد الموريسكيين والمحنة التي تعرضوا إليها.

وقد قام بلزا بأعمال مشكورة لإبراز الدور السياسي والإداري والفلاحي والتجاري لعدد أعلام الجالية الأندلسية بتونس كشيوخ الأندلس لويس زباطا Luis Zapata ومصطفى كردناشو. وعائلة الأخوة⁽¹⁾ المنحدرة من غرناطة والتي دخلت البلاد التونسية في القرن 18/12 بعد مرورها بأزمير وقد بقيت هذه العائلة تعيش سرا بإسبانيا وعرفت بعد استقرارها بتونس باحترافها لصناعة الشاشية.

وتأكيدا لهذه الأعمال الهامة المتعلقة بالعلاقة المتينة بين الموريسكيين المهجرين من إسبانيا والبلاد التونسية أبرز بلزا تفاصيل دقيقة حول الحياة بالقرى الأندلسية من خلال مذكرات القس الإسباني فرنسيسكو قرمينث Francisco Ximénez⁽²⁾ الذي أقام بها بين سنتي 1720/1133 و 1735/1148 والذي ركز على محافظة الأندلسيين على اللغة الإسبانية وعلى عاداتهم في البناء والزخرفة وتنظيم السلطة بتستور المستمد من التنظيم الإسباني كما يذكر بأن ساحة مدينة تستور كانت تستعمل في بعض المناسبات لإقامة حفلات مصارعة الثيران.

(¹) La familia Lakhoua descendientes tunecinos de moriscos granadinos del s.

XVII-XVIII, y sus actividades en la industria del bonete chechîa »Sharq Al-Andalus. Estudios Mudéjars y Moriscos (Teruel-Alicante) , 14-15 (1997-1998) 207- 231.

(²) Nuevos documentos sobre descendientes de moriscos en Tûnez en el siglo XVIII, Studia Historica et Philologica in Honorem M.Batlloori, Roma, (1984) 195-228.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

وموازاة لذلك فقد اهتم إبلزا بالعلاقة بين الأندلسيين وبقية السكان والاختلاف الواضح في العادات والتقاليد واللباس. كما تطرق إلى الدور الخطير الذي لعبه بعض أعلام الجالية الأندلسية كمحمود خزندار وسليمان الشريف القسطلبي في مساعدة الحسينيين في تركيز سلطتهم في البلاد التونسية وإيجاد الحلول للخلافات القائمة بين إيالة تونس والممالك الأوروبية، كالحلاف التونسي الفرنسي سنة 1728/1141 حول التجارة. هذا مع العلم وأن إبلزا قدم لنا معلومات مفيدة حول الثروات الطائلة التي كانت في حوزة هؤلاء والمتأتية من التجارة (تجارة العبيد والشاشية) .

العلاقات التونسية الإسبانية في القرن XIX

أدرك إبلزا التغيير الجذري للسياسة الإسبانية تجاه العالم العربي الإسلامي انطلاقا من تسمية فلوريدا بلانكا Floridablanca وزيرا أول الذي أبرم معاهدات سلم مع عديد الدول العربية والإسلامية منها تونس التي أمضت معاهدة مع إسبانيا سنة 1791/1206 (بين حمودة باشا وشارل الرابع) . وقد اشتركت معه في القيام بدراسة حول العلاقات التونسية الإسبانية اعتمادا على هذه الاتفاقية التي تدعو إلى تكثيف المبادلات التجارية وضمان حرية التنقل وحرية العبادة والإقامة ووضع حد للقرصنة. كما تناولنا في هذه الدراسة انعكاسات انتصاب الحماية الفرنسية على هذه العلاقات وخاصة وضع حد للقنصليات الإسبانية وإنهاء دخول رعايا الباي تحت حماية المملكة الإسبانية⁽¹⁾ .

(¹) Relations tuniso-espagnoles au XIXe siècle : documents et synthèse, les cahiers de Tunisie (Tunis) 101-102 (1978) 183-216.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية -

وفضلا عن ذلك قمنا بتخصيص مقال حول ملايسات قدوم القنصل الإسباني فرنسيسكو سفي Francisco Segui سنة 1804/1219 وانعكاساته على هذه العلاقات⁽¹⁾.

وفي نفس هذا السياق قام إبلزا بالاشتراك مع خوان بوتيسا فلار Juan Bautista Vilar بنشر كتاب ضخيم حول الخرائط البحرية والتصاميم المتعلقة بالأبراج والمنشآت الدفاعية التونسية (بنزرت، شكلي، جربة... .) أثناء القرون 16/10، 17/11، 18/12⁽²⁾.

التعريف بالإنتاج التونسي حول التاريخ المشترك

ركز إبلزا اهتماما خاصا على توفير المصادر التاريخية والتعريف بها فقد قام بالاشتراك مع محي الدين البوغانمي وعبد الحكيم القفصي بنشر كتاب بيبليغرافي باللغة الفرنسية واللغة الإسبانية حول المصادر التونسية عن تاريخ إسبانيا بين سنتي 1956 و 1973 وذلك لتوفير أداة عمل للباحثين المختصين في هذا التاريخ المشترك بداية من العصر⁽³⁾ القديم.

التعريف ببعض الجهات التونسية

في نطاق انشغالاته لتوفير المصادر عن تاريخ تونس وحضارتها قام إبلزا بإعداد مقال مطول حول رحلة الموريسكي بوي مونزون Puey Monzon سنة 1603/1012 إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج قام خلالها بوصف المواني التونسية التالية : الحمامات هرقل، سوسة، المنستير، المهدية،

(¹) Texto sobre la llegada del Consul General Francisco Seguia la Regencia de Tûnez (1804) y su correspondencia diplomática, Awraq (Madrid) XXII (2001-2005) 171-182 .

(²) Mapas, planos y fortificaciones hispanicos de Tûnez (S. XVI-XIX) . Madrid, Instituto de Cooperacion con el Mundo Arabe, 1991, 487 p.

(³) انظر الفقرة علاقة إبلزا بتونس والتونسيين.

- المستشرق الإسباني ميكال دي بلزا - دراسات أندلسية-

صفافس، المحرس، جربة⁽¹⁾. كما اعتنى برحلة دومنفو بديع Domingo Badia سنة

1807/1222 إلى البقاع المقدسة. بعد أن اعتنق الإسلام وأصبح اسمه الأمير علي بن عثمان باي

العباسي الشريف واصفا خلالها جزر قرقة⁽²⁾.

الخاتمة

يظهر من خلال هذا العرض السريع أن الفقيه ترك بصمات واضحة في التاريخ المشترك بين

تونس وإسبانيا من خلال الكتب والمقالات والعلاقات المتينة التي قام بها مع الباحثين والجامعيين

التونسيين خلال نصف قرن تقريبا.

تصويب

في فهرس المجلة المنشور في العدد 40، جويلية - ديسمبر 2008 تقدمت جذاذة بوراوي

(مليكة) على جذاذة بوتشيش (إبراهيم القادري) أثناء الرقن سهوا فوجب تصحيح الترتيب مع

الاعتذار.

⁽¹⁾ Dos textos moriscos biligües (arabe y castellano) de viajes a Oriente (1395 y 1407-1412), Hesperis- Tamuda (Rabat) XX-XXI (1982-1983) 25-112.

⁽²⁾ Le voyageur espagnol Domingo Badia (1761-1818) Ibla (Tunis) 121 (1968) 51-61.